

أرض اللعنات
خالد فودة
Designer : Dina Yasser
إبداع
للنشر الإلكتروني







خالد فودة



تصميم

الغلاف: **Dina Y Elshaarawi**

الداخلي : **Dina Y Elshaarawi**

تعبئة ورابط إليكتروني : **Dina Y Elshaarawi**

فريق عمل



للنشر الإلكتروني



اهداء

إلى أبي، داعمي الأول والأخير، فلولاك ما خَطت يداي حرف.

إلى أمي، أريد أن أخبركِ أن دعواتك قد أصابت.

إلى أخوتي، لطالما وقفتم بجواري دائمًا، أحبكم كثيرًا.

إلى رفيق حياتي، صديق القاهرة، صاحب عمري.

إلى محمد شعبان، أخي الذي أهدته ليّ الحياة.

إلى أحمد مسعد وسامي ميشيل، لولاكم لما كنتُ هنا.

إلى المخوفاتية، حسن الجندي، محمد عصمت، أحمد عبد المجيد، إلى العراب، لولاكم لما عرفتُ للقراءة سبيل، ولا للكتابة طريق.

أحبكم جميعًا وأهدي لكم روايتي الأولى.



أرض اللعنات

اللعنة هنا أكبر من حد استيعابك، قد تكون أمامك طوال الوقت ولكنك لن تراها، أنت من تتحكم بنفسك إذا كنت تريد رؤيتها أم لا، فأنت هنا اللاعن.. وأنت الملعون.

عز راضي



الفصل الأول

البداية.

لم أكن أعلم أن ما عشته في حياتي سيصلح كحكاية يومًا ما، كُنت صغير، شاب دخل الجامعة لتوه، لكنني لم أكن عابئ بشيء غير ما تعلمته من أبي وجدي، أعمال الزراعة والفلاحة، نبدأ دائما في الصباح لننتهي قُبيل المغرب، ذلك ما وجدت نفسي أفعله بحرفية شديدة، أصر أبي أن يدخلني الجامعة لأنه رأى لي مستقبل أفضل، أما عن ذلك اليوم، فأخبرني أبي بعدما قاربنا على الانتهاء، أن



أذهب لأرتاح قليلًا؛ فأنا من سيسهر في حراسة الأرض الليلة.

في المساء، كنت قد وصلت للأرض بالفعل، بدأت في الاستعداد للسهرة بكوب شاي وأغنية لأم كلثوم، أخرجت علبة سجائري، أشعلت واحدة ثم سحبت بضع انفاس بنهم، صرت هائم بكلماتها التي تخطت أذناي لتصيب فؤادي.

" بعيد عنك حياتي عذاب.. ماتبعدنيش بعيد عنك.. ماليش غير الدموع أحباب.. معاها بعيش بعيد عنك "

ارحتُ ظهري للوراء قليلًا ثم نظرتُ إلى السماء شاردًا في اللا شيء، يا له من شعور ممتع، أنا (والست) والليل فقط، بدأت أشعر بثقل جفناي، إنه



النوم يهاجمني بلا أي رحمة، كدتُ أن أستسلم له بلا مقاومة، فالليل ما زال طويلًا، ولكني تذكرت كلمات أبي عندما أخبرني أنه سيأتي هو في الصباح مع عمي وابنه ليكملوا ما بدأوه، وأن عليّ السهر في الأرض لحراستها، كنتُ أقاومه بتذكر تلك الأحداث، لكن ما جعل النوم يتسرب من عيناي، أنني أتوقع زيارة ابي أو عمي لي، ليروا إذا ما كنت اسهر على حراستها، أم انهم بعثوا بطفل صغير لا يقدر على حمل مسؤولية كتلك! هممتُ واقفًا على الفور حتى لم يعد للنوم أثرًا عليّ، أشعلت سيجارة أخرى وأم كلثوم ما زالت تُغني، تسلل لأذني صوت يأتي من داخل العشة " الجُرن "، اندس الخوف بقلبي حتى كاد يتمكن مني كليًا، فالعشة مُغلقة، ومن يمتلك



مفاتيحها أربعة أشخاص فقط؛ أنا وأبي وعمي وابن عمي، وجميعهم في المنزل الآن! إذن من بداخلها؟

الظلام كثيف، أكاد أرى بصعوبة، أخرجتُ هاتفي من جيبي، ثم ضغطتُ على زر الإضاءة به ليخرج شعاع نور قصير المدى، اتضحت الرؤية قليلًا، ظل أسود يقف بثبات أمام الباب، عندما رأيته شعرت بضربات قلبي تتسارع، حتى كاد قلبي ينفجر، جسدي بدأ يتصبب عرقًا كثيفًا، لم ادرك كيف لي أن أعرق كل ذلك العرق ونحن ما زلنا في فصل الشتاء!!



جمعتُ آخر ما تبقى من شجاعتي لأتقدم ناحيته، أنني هنا لأحرس الأرض، فلابد ألا يكون مكان للخوف بقلبي، كذلك شجعتُ نفسي، تحركت ناحيته، قدماي تتحرك خطوة وتؤخر خطوتين لا اراديًا، غمغمتُ بصوت مهتز:

_ ممم..ممم.. مين؟

ما جعلني أتوقف عن الحركة هو أن ذلك الشخص تقدم نحوي، أقترب مني وهو يقول:

_ أيوه يا زين يا أبني، أنا جيت أقعد مكانك لحد الصبح، روح أنت اتعشى ونام وتعالى بكرة بدري.



كان صوت عمي هادي، عندما سمعته ارتبكت قليلًا ثم أوقعت بسرعة السيجارة المشتعلة من يدي وقُلت:

_ حاضر يا عمي إللي حضرتك شايفه.

****

وصلتُ إلى المنزل، يا له من يوم صعب انتهى بمعجزة تنجدني مما كنت فيه، اعتدت منذ طفولتي على الشقاء، ولم يعد الأمر صعب عليّ، ولكن الإنسان دائمًا يُفضل الراحة على أي شيء، ما أجمل الراحة بعد يوم قاسي، والأجمل أنها بداخل بيت العائلة، أشعر وأنا بداخله بالقوة، لما لا، وعمي الكبير قد آثرني على نفسه وقرر السهر مكاني الليلة، دخلت المنزل، أبي يجلس بجوار



إبن عمي عزيز، صُعقوا عندما رأوني، رمقني والدي بدهشة ثم قال:

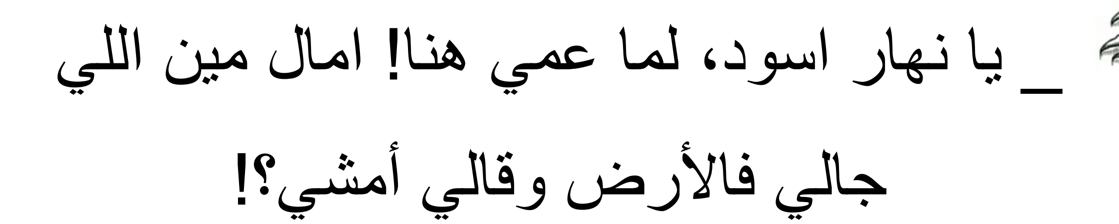
_ يا ليلة سودة، أنت إيه اللي جابك؟!

نظرتُ لهم باستغراب ثم غمغمتُ بغضب:

_ في إيه يا جماعة، ما عمي هيبات مكاني فالأرض زي ما قالي من شوية، وأنا وأنتوا هنروحله بكره من بدري.

_ أرض إيه اللي عمك هيبات فيها، الله يخرب بيتك المحصول هيتسرق.

قال تلك العبارة عمي وهو يترجل من الدور العلوي للمنزل! ولكن كيف؟ عندما رأيته وكأن تيار كهربائي سار بجسدي، قلتُ لهم بخوف تمكن من أوصالي:



_ يا نهار اسود، لما عمي هنا! امال مين اللي جالي فالأرض وقالي أمشي؟!

***

خرجت من المنزل مسرعًا نحو الأرض، عقلي كاد أن يقف تمامًا، إن ما حدث تخطى كل حواجز المنطق! دعوت الله ألا يكون مكروه قد حدث، يا لي من غبي؟ كيف لعمي قاسي الملامح غليظ القلب أن ينزل من فرشته الدافئة ليجلس مكاني! كيف لم أشك في الأمر؟! أنت ولد صغير لا يفعل شيء نافع في حياته، ذلك ما يقوله لي كلما يراني، دائمًا ما يفتعل المقارنات بيني وبين ابنه عزيز، فهو أفضل مني بكثير، والآن جاءت له فرصة من ذهب لكي يُقطع فرائي ليس أمام أبي هذه المرة، بل أمام العائلة كلها.



أكاد اقترب من الارض، علمت أنهم قد لحقوا بي من أصوات أنفاسهم التي تتعالى خلفي، فكرت في أسوء ما قد يحدث، كل الأشياء التي فكرت بها كانت اهون مما حدث، عندما وصلت كان المحصول كله يحترق، تجمدتُ مكاني للحظات، علامات الفزع ترتسم على قسمات وجه ابي وعمي، نظرات أعينهم كادت تحكي الكثير، لم يسعفهما الوقت للتحسر على تعبهم الذي سيصبح رماد بعد قليل، هرولوا عند جدول المياه وعيناهم مفتوحتان عن آخرهما.

_ اجري يا عز بسرعة كُبْ ميا.

أفقت من صدمتي على صوت والدي يصرخ فيّ بغضب، وكما يفعل أبي وعمي كنت أفعله، ملئت



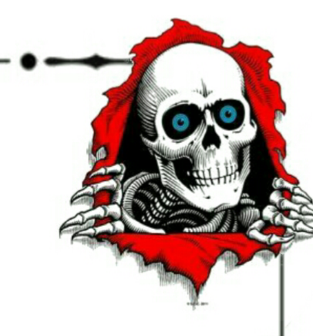
الدلو الفارغ بالمياه، ثم هرولتُ عند حافة لأرض لأفرغه واعيد ملئه من جديد، عندما تصاعدت ألسنة اللهب مكونة سُحب كثيفة، انضم الينا بعض المزارعين من مُلاك الأراضي المجاورة، جاءوا بمشاعر صادقة، ولكن تخللتها بعض الخوف من زحف النيران لمحاصيلهم، كان شغلنا الشاغل هو كيف نخمد النيران، زاد عددنا اكثر، والنيران لا تنطفئ ابدًا، الهواء ساعدها على الانتشار سريعًا، كُل محاولاتنا فشلت، كاد جدول المياه يفرغ والأرض لم تنطفئ بعد، لا أعلم أكانت النيران قوية لتلك الدرجة، أم أن المياه لم تعد بإمكانها اخماد النار!



المزارعين كساهم الفتور، بعدما اطمئنوا أن النيران لا تقترب من أراضيهم، فقط وقفوا ليتابعوا المشهد، جثوتُ بركبتاي على الأرض لألتقط انفاسي، عيناي ما زالت تعكس لون النار بخيبة، كل هذا بسببي أنا! لو لم اترك الأرض ما كان لذلك أن يحدث، دققتُ النظر وسط ألسنة اللهب، رأيتُ أحدًا يقف في منتصفها، كذبتُ عيناي، فأشد الرجال بيننا لن يجرأ على فعلها، حتى تبينت ليّ الحقيقة، ما رأيته يقف هناك موجود بالفعل، هو من رأيته بجوار العشة، وبالتأكيد هو الذي جعلني أترك الأرض، وهو نفسه من أحرقها، تعالت ضحكات مصدرها ذلك الظل، ضحكات مستفزة قادرة على جعلك تريد تهشيم رأس صاحبها، جسدي أخذ يغلي من



الغضب، قمتُ من على الأرض بسرعة تتنافى
مع إجهاد جسدي، ركلتُ دلو المياه ثم تقدمت
ناحيته بنفس السرعة، لأعرف ذلك الشخص الذي
قد عبث بعداد عمره، الغضب جعلني لا أرى
أمامي، لم افكر فيما قد يُصيبني قدر ما فكرتُ في
الانتقام، كدتُ اقترب من حافة الأرض، لكن
النيران أمسكت بطرف جلبابي حتى قبل أن
اقترب منها، توقفتُ حينها محاولًا اطفائها، ولكنها
لا تنطفئ هي الأخرى، انني بعيد عن جدول
المياه، وإذا هرولت ناحيته لأطفئ النار بالمياه
لتفحمتُ قبلها، كل ذلك جال برأسي وأنا احاول
اخمادها بيدي، ولكن لا فائدة، صرختُ كي
يساعدني احد، صرختُ بأعلى صوتي حتي
سمعتُ صوت والدي يقترب، بعدها شعرتُ

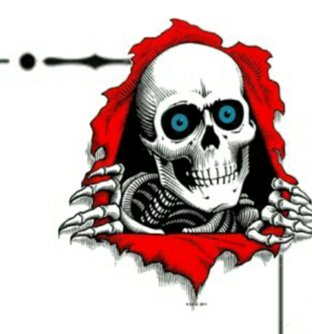


بالمياه تغمرني واطفئت النار، خلعتُ جلبابي الذي احترق، صوت الضحكات ما زال يرج المكان رجًا، ولا يعبئ به احد، الرجال ما زالوا يحاولوا اطفائها، حتى الذين انهكهم التعب وقرروا الاستسلام لم يأمنوا غدرها وعادوا يحملون أواني المياه ثانيةً، ولكن حتمًا لم يكن مُقدر للنيران أن تنطفئ الآن، لم يستطع أي أحد الاقتراب من الأرض، فالنار أخذت تُهاجم كل من يدنوا منها، كل ما استطاع الرجال فعله هو ترك ما في أيديهم والجري بعيدًا عن الأرض، سمعتُ صوت أحد منهم يقول:

_ ارجعوا، النار بتاكل كل اللي يقرب منها، الحاج سيد النار صابته، ارجعوا.



لن استسلم، أنا سبب كل هذا، وأنا من سيطفئها، ولو على جثتي، لن استسلم ابدًا، اسرعتُ ناحية الأرض حتى دخلتها، لم أكن أعلم كيف سأطفئها، لكن هناك شيء واحد سأفعله، وإذا نجحتُ سينتهي كل شيء، كنتُ أجري بداخلها باحثًا عنه، ذلك الظل الغريب الذي نجح في أن يقلب حياتي جحيمًا، بحثتُ في كل مكان ولكني لم أره، ابتعدتُ قدر المستطاع عن النيران، حتى وصلتُ لمنتصف الأرض، سمعتُ صوت أبي وعمي يُنادون عليّ من خارج الأرض، ولكن من شدة الحرارة صوتي أبى أن يخرج، من خلفي خرج صوت يقول:



_ ارحلوا يا أولاد خليل، فالأرض لم تعد ملكًا لكم.

ادرتُ جسدي ناحية الصوت لأرى قائلها، رجل يرتدي عمامة سوداء وجلباب من نفس اللون، لم أرى وجهه بسبب القماشة التي تغطيه، ولكني رأيتُ عينياه الحمراوتان، كانتا تمتلئان غضبًا عن آخرهما، ولكن أي سبب يمكن أن يغضب له ذلك الرجل لا يُقارن بنار غضبي التي فاقت نيرانه حرارة، لا يقارن ابدًا بما فعله، لتكن نهايته الآن، امسكت به بسرعة، ولكني شعرتُ بالنار تسري بيدي، وكأنني اقبض على جمر مشتعل، صرختُ من الألم ومن النيران التي بدأت تحاوطني، وسط صراخي كانت ضحكاته تعلو، جثوتُ على



ركبتاي من شدة الحرارة، بدأتُ اختنق من الدخان الذي شق صدري من كثرة استنشاقه، شعرتُ بثقل رأسي، وقعتُ على الأرض، لا صوت غير صوت ضربات قلبي، اغمض عيني ثم أفتحهما ببطيء، حتى أغمضتهما ولم أشعر بشيء بعدها.

***



الفصل الثاني

"الخائن"

فتحتُ عيني لأجد نفسي على سريري وكلتا يداي مغطاتان بقماش طبي، أفراد العائلة جميعهم يقفون أمامي، وقعت عيناي على أبي وعمي، وبعدها على ملابسهم المهترئة، ثم على أعينهم الغاضبة التي ترمقني بازدراء! عدلتُ من وضع جسدي النائم لأستند بظهري على السرير بصعوبة شديدة، نظرتُ لهم ثم قلت:

_ أنتو بتبصولي كدا ليه؟ أنا معملتش حاجة ولا سيبت الأرض من نفسي، كل الحكاية إن أنا



شوفت عمي وسمعت صوته وهو بيقولي روح انت يا عز وأنا هسهر بدالك الليلادي.

نظر لي عمي هادي وقال بغضب:

_ ومن امتى وأنا بسهر في الأرض؟ وبعدين أنت السبب في اللي حصل ده.

_ ليه كدا يا ابني ليه؟ ده محصول ناس دافعة فلوسه، حرام عليك.

قال العبارة الأخيرة جدي سالم والحزن يرتسم على وجهه، قطعه صوت عمي قائلًا:

_ حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا أخي، ده ابني لو مكانك عمره ما كان هيعمل اللي أنت عملته ده.

لم ارد عليه فقط احترامًا لوالدي ولجدي، غير ذلك لكنت انفجرتُ فيه، هدأت من روعي قليلًا،



لأمتص غضبهم بأي طريقة كي تنجلي الليلة بسلام، نظرتُ لعزيز لأجده ينظر إليّ، تبادل النظر بين جميع الواقفين ثم قال:

_ هو برضه السبب يابا!

نظر له عمي بحده وقال:

_انت تخرس خالص والا همسح بكرامتك الأرض قدام العيلة كلها.

انخفضت رأس عزيز لأسفل، تقدم جدي سالم ليقف بجواره ثم قال له:

_ اتكلم يا عزيز، اتكلم وقول مين السبب.

تابعتُ الحديث بشغف، لأعلم من سبب ما نحن فيه، عندما يتكلم عزيز سيبرأني حتمًا، نظر



عزيز لوالده والدموع تتساقط من عينيه، ثم نظر لجدي وقال:

_ أبويا هو السبب يا جدي، أبويا راح جاب شيخ عشان يكشف عن الآثارات اللي في الأرض النهاردة الصبح، وده اللي سمعته بيقوله لأمي من شوية.

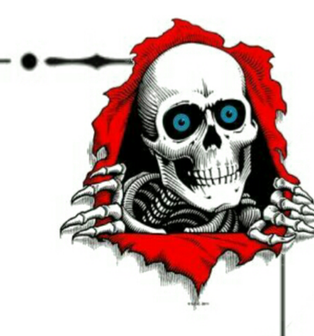
نظر جدي لعمي بدهشة قائلًا:

_ صح الكلام اللي قاله عزيز ده يا هادي؟

امسك عمي ابنه من رقبته وقال:

_ جرا ايه يابا، انت هتصدق حتة عيل؟

_ اوعاك تمد ايدك عليه والا هطردك من البيت، جاوبني، صحيح الكلام ده؟



قالها جدي وهو يمسك يد عمي، نظر عمي له ثم وضع نظره في الارض، حَلّقُه تشنج وجمد، بدأ يتفوه بكلام متقطع غير مفهوم، ولكن الصوت في حلقه انكتم، حتى سكت وخمد حماسه، اقترب جدي منه وضربه بالقلم على وجهه :

_ القلم ده عشان كدبت عليا، وعقابك على اللي انت عملته انك تاخد هدومك ومراتك وتشوفولكم بيت تاني، انت كسرت كلمتي وخرجت عن طوعي، وطول ما انا عايش مش هتخش البيت ده ولا هتطول مليم واحد.

رمقني عمي بغضب، ثم لابنه بغضب أكبر، هرول خارجًا من الغرفة ثم خرج أبي ورائه



ليلحقه، لم يتبقى في الغرفة غير جدي الذي اقترب مني وقال:

_ ارتاح انت يا عز يا ابني عشان الحروق اللي في ايدك، ولما تصحى نكمل كلامنا، الصباح رباح يا ابني.

خرج جدي من باب الغرفة، قبل أن يُطفئ مصباح الإضاءة نظر لي بود ثم أغلق المصباح والباب.

***

أكان عمي سببًا في كل ذلك من البداية؟ ولكن لماذا يتهمني أنا وهو يعلم أنه سبب ذلك؟

فتحتُ عيني على الظلام، ليلة أمس كانت كفيلة بأخذ سنة كاملة راحة على الأقل، إن كل ما



يحدث لا هو مفهوم ولا يمتُ للمنطق بصلة،

أشعر أنني بداخل فيلم كارتون والكاتب يريد

للأحداث أن تتصاعد على حسابي! يا لها من ليلة،

ويا ويلي منها، منذ دقائق استيقظتُ على كابوس

بطله ذلك الرجل الذي رأيته وسط النيران، كان

يضحك بسخف كما يفعل، حمدًا لله أنه مجرد

كابوس مزعج، فلن يتمنى أحد أن يعيش موقف

كاد يُقتل فيه أكثر من مرة. ولكني تعلمت،

تعلمت على الأقل آلا أصبح مثل عمي، فلولا

طمعه ما حُرقت الأرض، لن أصبح مثله ابدًا،

يفعل فعلته ثم يلوم الآخرين عليها!

قطع تفكيري صوت تسلل إلى اذني، شيء ما

يحتك بملائة السرير، لم اعطيه كامل انتباهي،



ولكنه مستمر بل ويزيد، كنتُ نائمًا على جانبي الأيمن والصوت يأتي من خلفي، ومن المفترض أن ألتفت ورائي لأعرف مصدره! بعد ما حدث أمس لم أعد أملك ولو جزء صغير من الشجاعة كي احرك قدمي تحت الغطاء حتى، فكيف سألتفت إلى ذلك الصوت الذي لا يبشر بأي خير!

أغمضتُ عيني وقررتُ ألا ألتفت لأي صوت أسمعه، عندما أتجاهله سيتجاهلني هو الآخر، لم تمر الدقيقتين وكان الصوت عاد من حيث أتى، لقد نجحت، فتحت عيني لا اراديًا لأجده أمامي.

***

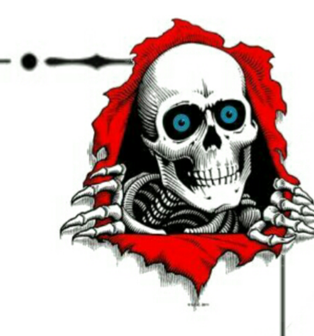
الكابوس يتحقق، تبًا لذلك الرجل ولتلك الليلة التي لن أنساها ما حييت، وقف أمامي بلا أي حركة،



وكالعادة لا شيء واضح سوى عيناه، والتان كانتا كفيلتان بجعلي ارتجف أسفل غطائي، كانتا واسعتان، مصبوغتين بلون النار، سأهاب النار ما تبقى مني نفس، أردتُ أن أغمض عيناي ولكني لم استطع، كأني مجبر على مشاهدته وهو يقف أمامي، حاولتُ التحرك لأتجنبه، لكني كنتُ كصنم لا يتحرك، كنتُ فقط اراقبه وهو يراقبني! قطع صمته عندما اقترب مني وقال:

_ الأرض لم تصبح ملككم الآن، اتركوها وارحلوا عنها، والا فالنار، النار ستطول دياركم كما صابت زرعكم.

انتهى من كلماته تلك برسالة صريحة، أنا لا أعرف ذلك الرجل، ولا اعلم ماذا يريد مني



بالتحديد، لماذا يريدنا أن نترك الأرض ومن المفترض أنها ملكنا! وكيف لم تعد ملكًا لنا؟

احسستُ بضربة على رأسي ثم غبتُ عن الوعي مجددًا، ولكني استيقظتُ لأجد أنني كنتُ بداخل كابوس آخر.

الحياة حلم مفزع، تعيش بداخله رغمًا عنك، يومٌ يُسلِمُك للآخر، دائرة مغلقة، حينما تُفتح ستكون ساعتك قد حانت، وعندما تستيقظ من ذلك الحلم، ستكون حياتك قد انتهت، وينتهي الكابوس بالنهاية المتوقعة، موتٌ حتمي.

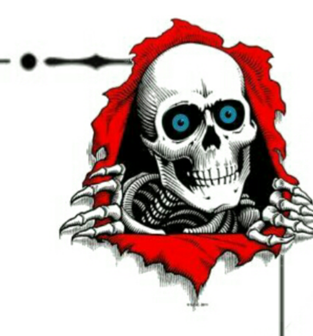
تلك المرة استيقظتُ على صوت امي وهي تصرخ:

_ يا لهوي أبا الحاج سالم مات.



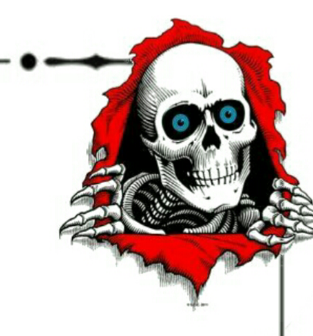
يا لهول ما سمعت، ارتعدت أوصالي فزعًا، رفعتُ الغطاء عن جسدي غير عابئ بالألم في يداي، ترجلتُ من السرير بسرعة، ألم رهيب في قدماي جعلني غير قادر على الوقوف، تحاملتُ على نفسي ثم خرجتُ من الغرفة لأرى ماذا يحدث.

أمي وجدتي تعالت أصوت نحيبهم، تجلى الضيق والحزن في وجه أبي، أنني لم أرى دمعة في عينيه طيلة حياتي، وها هو الآن يبكي امامي، لم أصدق ما يحدث لنا تلك الايام، بكيتُ أنا الآخر، بكيت بمرارة، أنني لم أشعر بالحزن في حياتي قدر ما شعرتُ به الآن، جدي الذي لم أرى منه غير الحنان، كان يحبني كثيرًا، كنتُ حفيده الأول،



فكان الحب مُضاعفًا، عندما وجدوه في الصباح قاطعًا للنفس، طلبوا طبيب الوحدة فورًا، وعندما سألوه عن سبب الوفاة، أخبرهم أنها أزمة قلبية تسبب فيها ارتفاع ضغط الدم.

من جعل ضغطه يرتفع هو عمي، جدي لم يمت، جدي قُتل على يد عمي، هو سبب موته، كم أمقته، في البداية اتهمني بحريق الأرض وهو سبب ذلك، والآن موت جدي بسببه أيضًا، أنا أعلم أنه لا يحبني، دائمًا ما يرى ولده أفضل مني، ليست لدي مشكلة في أن يكون عزيز افضل مني، فأنا أحبه وهو بمثابة أخي الصغير الذي لم أرزق به، لكن أباه لا يدرك ذلك، يفتعل المقارنات وفقط، لم أندهش من وقوف عزيز بجانبي، حتى



ولو كان على حساب والده، لطالما عامله أباه بقسوة شديدة هو الآخر، يخاف عليه بطريقة تجعل عزيز يريد الانتحار ليتحرر من ذلك القيد، لا يستمع لمشاكله أبدًا، فهو بخير ما دام يأكل الدجاج!! لم يعد يتحمل ظلم والده، ولأنه يحبني أبى أن يراني مظلوم ولا يساعدني.

بحثتُ عنه في المنزل ولكني لم أره، علمتُ من أبي أنه قد غادر مع أبيه وأمه بعدما جمعوا اغراضهم، وعلمتُ أيضًا أن أبي قد أخبره بما أصابنا، ومن المفترض أنه سيأتي ليأخذ عزائه، بعدما قتله يسير خلف جثمانه باكيًا.

***



" السلام عليكم دار قوم مؤمنين.. أنتم السابقون.. ونحن إن شاء الله بكم لاحقون.. نسأل الله السلامة لنا ولكم "

على مدخل المقابر كُتبت تلك العبارة، سبقنا جدي عند قدوس السماوات والأرض، وسنلتقي به قريبًا، حملنا نعشه وسرنا به، في المقدمة عمي وأبي، وأنا وعزيز في الخلف، لطالما كنتُ خائف من أن يأتي ذلك اليوم، وها هو قد أتى. جدي دائمًا ما كان طيب مع الآخرين، رجل لا يظلم أحد، ولم يغتاب أحد، كان محبوبًا في القرية كلها، والدليل على ذلك جنازته المهيبة.

" لمن الملك اليوم.. هنا مقابر عائلة أولاد خليل "



وقفنا أمام مقابر عائلتنا، وضعنا النعش على الأرض، رفعنا عنه البطانية التي كانت تغطيه، حملناه ثم نزلنا به لمثواه الأخير، كان والدي قد أعطى مفتاح المقابر لعبد الصمد التُربي سابقًا كي يفتح القبر ويجهزه، ترجلنا على درجات السلم، مع كل درجة كانت نبضات قلبي تزداد، أنني أخاف المقابر، ومع ذلك توجب عليّ أن أنزل لأودع جدي، وضعه عبد الصمد على الأرض، طلب عمي أن يرى جدي للمرة الأخيرة، فك عبد الصمد رباط الكفن عن وجهه، رأيناه، كان نائمًا كالأطفال، الوداع يا جدي، اسقطت عيني دموع كثيرة، شعور صعب أن تودع أحدًا تحبه، والأصعب علمك أنك لن تراه ثانيةً.



***

الفصل الثالث

"عزيز- وحكاية الأعور "

انتهى العزاء، كنتُ اقف بين والدي وعمي، نظر والدي لعمي وقال:

_ ابوك مات بسببك يا هادي.

نظر عمي لأبي ووجهه يشع حزنًا:

_ يا ريت اللي جرى ما كان، يا ريت كنا فوقنا يا راضي، ملعون ابو الفلوس، احنا لا يمكن نبيع ارض ابونا وجدنا.

_ تفتكر هتعدي على خير؟ تفتكر الموضوع هينتهي على كده؟

_ ربنا يستر يا راضي يا أخويا، ربنا يستر.



لم افهم الكثير، كل ما فهمته أن هناك كارثة ينتظرونها في حالة أنهم لم يبيعوا الأرض، بالفعل لم تنتهي دقائق حتى سمعنا:

_ الحقوا يا ناس، الحقوا يا اهل البلد، أرض عيلة خليل بتولع تاني.

نظر أبي لعمي بخيبة، تبادل عمي النظرات الينا، أخذ ينظر حوله وكأنه يبحث عن شيء ما، زاد قلقه أكثر، بعدها سألني إن كنتُ رأيت ابنه عزيز، أجبته أنني رأيته آخر مرة قبل أن ينتهي العزاء، صرخ عمي في أبي قائلًا:

_ مصيبة ليكون راح الأرض، هيموت الواد يا هادي، هو عايز الأرض.



لم أفهم ما قاله ولكنني شعرتُ بالخوف، أسرعنا الجري خلف عمي ناحية الأرض، كانت تحترق بالفعل، نفس المشهد يتكرر مجددًا، الرجل الغريب يقف في منتصف الأرض، ولكن المختلف تلك المرة هو وقوف عزيز بجواره، امتزج الرعب والخوف على وجه عمي الذي أخذ يبكي كالأطفال، أخذ يتوسل لمن بالداخل ألا يؤذي ابنه، ويعده أنه سيترك له الأرض، هرول عمي ناحية الأرض المشتعلة، ولكن والدي منعه، كان يجب عليّ أن اتصرف، كان يجب أن أفعل أي شيء في سبيل إنقاذ عزيز اخي وصديق عمري، ذهبت نحو جدول المياه بسرعة، خلعتُ جلبابي ثم بللته بالماء، غطيتُ به رأسي ويداي، ثم دخلتُ مسرعًا وسط النار، قد أموت تلك المرة، فلا أحد



ينجوا من الموت مرتين، ولكن على الأقل لن أقف مُكبل اليدين وعزيز بالداخل! صوت أبي يرتفع من ورائي:

_ ارجع يا عز، ارجع يا ابني، ارجع عشان خاطري هتموت.

بحثتُ كثيرًا حتى رأيته، كان يجلس على ركبتيه بجانب الرجل الغريب، رأسه كانت منحنية ناحية الأرض، رفع رأسه وقال لي بصوت جاهد كي يخرج من حنجرته:

_ طول عمري بدفع تمن غلطات أبويا، لكن دي شكلها آخر غلطة هدفع تمنها، عمايل ابويا هتموتني يا عز، بس أنا مسامحه، مكنتش عايز اموت كده، لكنه خلاص قدري وجه وقته.



نظرتُ للرجل الواقف بجوار عزيز وقلتُ:

_ خلاص عمي هيسيب لك الأرض، بس متأذيش عزيز.

_ انتهى الأمر.

يا لهول ما رأيت، ليتني فقدتُ بصري ولا أرى ما رأيته، جسد عزيز يتفحم أمامي!! جثوتُ على ركبتي باستسلام وأنا أصرخ، نظرت بغضب إلى الرجل وقلت له:

_ ذنبه ايه عشان يموت كده؟!

_ عندما لا تكون الأرض في يد اصحابها، فاللعنات لن تفرق بين صغير وكبير.

قال الرجل كلماته واختفى، ثم اختفت النيران معه.





دُفن عزيز، عمي لم يتحمل موت ابنه الوحيد وأصبح من سكان مستشفى العباسية، قضى فيها اسبوعين وتوفى، قبورنا لا تكاد تُغلق حتى تُفتح ثانيةً.

والدي باع الأرض، أعطى جدتي نصيبها منها، ثم طلب أن يبيع المنزل وقال لجدتي وأن تأتي لتعيش معنا في بيتنا الجديد بالقاهرة ولكنها أبت، قالت إنها ستعيش في بيت زوجها ولن تهجره حتى تموت، وأنها ستجلس مع زوجة عمي، وبالأخص بعدما تعرضت زوجة عمي لجلطة بعدما علمت بموت ابنها وزوجها، ولكننا انقذناها، أما نحن، فانتقلنا لبيتنا الجديد، مبتعدين قدر الإمكان عن لعنات الأرض، والقرية كلها.



انتظر.. تمهل.. القصة لم تنتهي بعد، وتلك ليست النهاية، لا تزال هناك تكملة.

بعد حوالي سنة.

ذهبتُ لزيارة جدتي، فلم أرها منذ آخر مرة تركنا فيها البيت، وأنا في طريقي، ممرتُ بجانب الأرض، ما زلت أتذكر كُل ما حدث كأنه البارحة، اتذكر كل نقطة عرق سقطت مني وأنا اعمل، أتذكر عندما كنا نلعب أنا وعزيز رحمه الله بداخلها عند نمو الذرة، حتى ذلك اليوم المشؤوم، أتذكر تفاصيله كلها، لكم تمنيتُ أن تُمحى من ذاكرتي، ذكرى لأشخاص رحلوا، ذكرى حزينة، لكنها حتمًا ستتوارى بين طيات العقل، وستختفي مثل باقي الذكريات الأخرى.



لمحتُ لافتة كُتب عليها " الأرض ملك للشيخ سعيد رفعت وأولاده "

أصابني الفضول عن ذلك الرجل، تُرى هل توقفت اللعنة بعدما اشتراها أم لا؟

وصلتُ المنزل، قابلتني جدتي بوليمة من الطعام فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، اطمأننت عليها وعن صحتها، ونحن جالسين نشرب الشاي سألتها عن سعيد رفعت الذي اشترى الأرض، أخذت تفكر وهي تردد الاسم كي تتذكر ثم قالت:

_ كل اللي افتكره يا ابني عشان انت عارف حكم السن وذاكرتي بقت على قدها خالص، إن الراجل ده كان عاوز يشتري الأرض من جدك الله يرحمه، لكنه كان رافض أنه يبيعهاله، الراجل ده



حاول معاه كذه مرة، لكن جدك مكانش عنده نية للبيع خالص.

سألتها بحيرة:

_ طب يا ستي الأرض مولعتش تاني بعد ما اشتراها؟

_ مش عارفة يا ابني والله، بس باين كدا أنها مولعتش من آخر مرة، الراحل ده شكله مبروك.

انتهينا من الشاي، قضيتُ اليوم معها ثم استأذنتها لكي اعود اللي المنزل، طلبت مني المبيت الليلة لكنني تحججتُ بأنني سأتأخر على العمل في الصباح.



في طريقي لموقف الميكروباص رن هاتفي، أخرجت الموبايل من جيبي ورددت، كانت اختي زينب، قالت لي والخوف يبدوا على صوتها:

_ تعالى بسرعة يا عز، بابا تعبان اوي وعايز يشوفك.

أغلقتُ الخط، تركتني لخوفي الذي بدأ ينهش جسدي، هذا أسوأ ما يمكن أن يسمعه شخص في حياته، وصلت المنزل بعد ساعتين، هرولتُ إلى المنزل، فتحت لي أمي وهي تبكي، ارتسمت الصدمة على وجهي كليًا، أخبرتني أن أبي ينتظرني بالداخل، دخلتُ إلى الغرفة مسرعًا، كان والدي ممددًا على سريره في وهن، نظرت له متأملًا أيام قوته، عندما كان بصحة جيدة، ولكنه



الآن لا يستطيع حتى أن يدخل الحمام بمفرده، وكأن عافيته قد سبقته للسماء السابعة وجلست تنتظره هناك، وحتمًا انها لن تنتظره كثيرًا، وجهه الشاحب الذي كساه اللون الأصفر، وتلك العينين الحائرتين أكدت مخاوفي، بدأت الدموع تتكون أسفل جفناي حاجبة الرؤية تمامًا، تنهدتُ كاتمًا حزني، مددتُ كلتا يداي لألتقط يده، جثوتُ على ركبتي بجانب السرير، قبلتُ يده بحزن دفين، شعرتُ بحرارة جسده وهي تنخفض عما كانت عليه، التفت إليّ ببطيء والمرض ينهش جسده النحيل، وكأنه شعر بوجودي الآن، نظر إليّ ثم ارتسم أسفل شاربه ابتسامه تحمل في طياتها كلمات أكثر من أن تقال، كاد يتكلم لكنه سعل بقوة، تنحنح ثم قال:



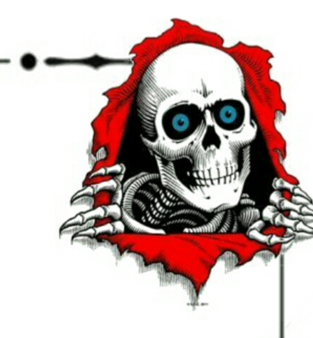
_ عايز أقولك حاجة يا عز يا ابني قبل ما أقابل وجه كريم، أنا غلطت كتير، كتير أوي، بس الذنب شاله واحد غيري، جدك وعمك هادي وعزيز ابن عمك، زمان وقبل حريق الأرض، عمك هادي جالي بعد ما خلصنا شغل في الأرض، وروحنا القهوة نشرب حجرين معسل وقتها لقيته بيقولي: « اننا نبيع الأرض، وكل واحد فينا ياخد مبلغ محترم، بدل الشقى والتعب اللي بنتعبه، كل واحد يفتحله مشروع »

لما قالي كده رديت عليه وقولتله: « اني أنا موافقه الرأي، لأني تعبت من الشقى، وكنت عاوز أخدتكم من البلد ونعيش في القاهرة »



ولما قولتله كدا اقترح عليا اننا نقنع ابويا بفكرة بيع الأرض، وقالي كمان أن عنده واحد يشتريها بسعر كويس.

وقتها قولتله إن أبويا مستحيل يبيع، ولما مقولتله كدا قالي إن أبويا هيضطر يبيع لما المحصول يتسرق، ولما سألته المحصول هيتسرق ازاي قالي أهدى يا راضي، إحنا اللي هنسرق المحصول، قعدت شوية أفكر في كلامه اللي مقدرتش أفهمه، لحد ما هو قطع تفيكي وقال: « هنخلي ابوك ييأس منها، لحد ما يطلب بنفسه إنه يبيعها » وقتها سألته وقولتله وافرض مطلبش؟ قالي: « متقلقش، من اللي هيشوفه هيوافق »



وقالي كمان: « عاوز أقولك على حاجة مهمة يا راضي، بص بقى، الراجل اللي هيشتري الأرض قالي إن الأرض فيها أثارات، وقالي كمان لو خلصتولي فيها هديكوا نسبة من اللي هيطلع »

وقتها أنا قولتله على كدا الراجل ده أمين؟ فقالي هادي: « أنه طبعًا راجل أمين، والا مكانش قالنا على الأثارات قبل ما يشتري الأرض »

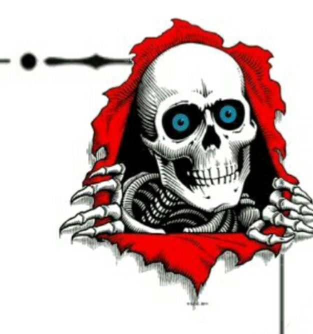
وكما كلامه وقال: « إن الشيخ عايز يجي الأرض الصبح بدري تاني يوم »

المهم يبني الشيخ جه، وشاف اللي شافه فيها، وبعد كده مشى، بعدها قولتلك انك هتبات في الأرض الليلة، ولما روحت وسمعت صوت عمك مكانس عمك، احنا سجلنا صوته على الموبايل،



عشان حد يشغله وتمشي، والرجاله تعرف تسرق المحصول، لكن اللي حصل أن الأرض اتحرقت، والرجالة ملحقوش يعملوا حاجة، انا وعمك مبقيناش عارفين نعمل ايه، خطتنا باظت، بعد ما جدك طرد عمك روحت وقولتله بيع الأرض يابا، بيع الأرض وضم اخويا بدل ما تطرده من البيت، جدك زعل وقاعد يزعق فيا ودخل اوضه، والتي يوم عرفنا أنه مات.

قطبتُ حاجباي، لم استطع ان اصدق ما وقع على مسامعي، أبي هو سبب كل ذلك!! وقفت الكلمات في حلقي، لم أستطع التفوه بكلمه، صمتُ لدقائق كي احاول استيعاب ما سمعته، تذكرتُ اسم الرجل الذي اشترى الأرض، قولتُ لأبي:



_ لما كنت في البلد عند ستي عديت على الأرض وشوفت يافطة مكتوب عليها اسم الراجل اللي اشترى الأرض أسمه سعي..

_ سعيد رفعت.

قطع والدي حديثي بالعبارة السابقة، والتي قالها بوهن شديد، حينها سألته بفضول:

_ مين سعيد رفعت ده يابا؟

_ سعيد رفعت ده الشيخ اللي عمك جابه، وهو ده اللي هيشتري الأرض، بس ده طلع عامل علينا فيلم كبير اوي ونصب علينا كلنا.

نظرتُ لأبي باستغراب وقلت له:

_ نصب علينا ازاي ياحاج؟



سعل أبي قبل أن يتكلم، ظل يسعل بقوة حتى كادت روحه أن تخرج قبل موعدها، ناولته كوب ماء، شرب ثم تنحنح وقال:

_ الشيخ سعيد رفعت جده يبقى عبد السلام الأعور، جده كان راجل من أعيان البلد، خلف بنت والبنت دي كبرت، وبعدها اتجوزت من واحد مش تمام، أبوها مكانش موافق على الجوازة دي، وخصوصًا بقى إن الواد ده كانت سمعته سبقاه، وكان بتاع بنات وحلانجي، بس البت كانت بتحبه، وعشان كده اتجوزوا من ورا ابوها، المهم الواد ده لعب بعقلها وخلاها تروح تطلب نصيبها من ورث امها بعد ما ماتت، لكن ابوها قالها: «طول ما انتي مبتسمعيش كلامي



وماشية ورا جوزك اللي خلاكي تعصي أمر أبوكي يبقى ملكيش حاجة عندي»

عدت الأيام البت خلفت عيل صغير، والحاج عبد السلام الأعور كان على فراش الموت، مكانش عاوز يورث بنته اللي جابتله العار مليم واحد، وساعتها وقبل ما يوم أدى حُجة الأرض لجدك الكبير، خليل الله يرحمه، كان شغال معاه من صغره وكان دراعه اليمين، ومرت الأيام والحاج عبد السلام مات، والأرض انتقلت لجدك خليل، لغاية ما جت ساعته وجدك سالم الله يرحمه ورثها.

قطعتُ حديثه بعدم فهم مغمغمًا:

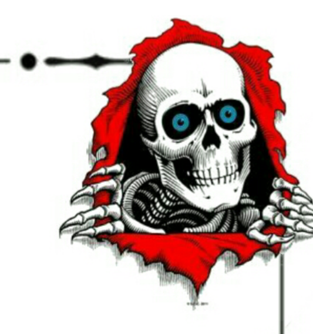
_ ايوا يابا ايه علاقة كل ده لسعيد رفعت؟



_ مهو سعيد رفعت ده يبقى ابن البت، البت بنت الأعور.

صمت أبي لبرهه، كان يعتقد أنني سأتكلم، ولكنني صمتُ أنا الآخر، حينها أكمل والدي حديثه:

_ سعيد لما كبر وبقى قدك في سن الجامعة كده، كان أبوك خليل راح للي خلقه، وابويا سالم ورث الأرض، سعيد مكانش لاقي لا شُغلة ولا مشغلة، وكان طالع زي أبوه، حلانجي، فلما عرف بالأرض راح لأبويا سالم يطلبها منه، لكن ابويا سالم رفض وقال: «مش هتخلى عن الأرض اللي ورثتها من أبويا أبدًا» الواد غاب عن البلد فترة ورجع مسمي نفسه الشيخ سعيد، وفتح بيت أمه للناس اللي بتجيله، انا معرفش حقيقة أنه ليه في



السحر والأعمال، لكن كل اللي كنت عارفه أنه أكيد مش شيخ ولا يعرف لربنا طريق، كنت عارف أنه عامل ده كله عشان يرجع الأرض اللي المفروض تكون ورث أمه.

_ طلاما انت عارف ده يابا وافقت على اللي قاله عمي وبعت ليه الأرض ليه؟

قال لي والندم يظهر جليًا على قسماته:

_ مكنتش أعرف إن ده اللي عمك بيقول عليه، ده غير أن نص الحاجات اللي قولتها لك دي مكنتش أعرفها وجدك سالم اللي قالها لي يومها، الأرض مفيهاش آثارات ولا حاجة، يومها جه الأرض وحط حاجات غريبة فيها، ولما عمك الله يرحمه ويسامحه سأله عنها قاله: «ده عشان اعرف



اتواصل مع رصد المكان، وعشان أقدر أحدد
المقبرة فين بالظبط» لعب علينا لعبة متخرش
المياه، طمع عمك وحلمي اني أخرج بره البلد
عشان تقعدوا في مكان نضيف هما السبب،
الأرض دي بتاعت جدك خليل من شقاه وعرقه،
بحكم السنين اللي اشتغلها مع الحاج عبد السلام،
أما بعتها ليه، فعشان أقدر أحمي الباقي من العيلة،
الأرض لو مكانتش اتباعت كنا هنموت واحد ورا
التاني نفس موتة عزيز ابن عمك، سعيد جالي بعد
دفنه عزيز وقالي: «مش ناوي تبيع الأرض يا
راضي» اتفقت معاه وبعتها له بتراب الفلوس،
وجينا البيت هنا عشان نبعد عن اللعنة، اللعنة اللي
بدأها الطمع ونهاها الموت، سامحني يا ابني، أنا
عارف اني غلطان واني السبب في موت جدك



اللي مات غضبان عليا انا وعمك، لكني طمعان انك تسامحني وتدعيلي أنا مهما كان مليش غيرك، خلي بالك من أختك وامك يا عز يا ابني.

كنت أنظر في أرض الغرفة مَحني الرأس، لم أصدق ما أسمعه، بعد كل ما حدث ويطلب مني أن أسامحه! كيف ذلك؟

لاحظتُ صمت أبي الذي طال، رفعتُ رأسي لأنظر إليه، كان ينظر إلى سقف الغرفة نظرة طالت كثيرًا، مسكتُ يده إذا هي باردة كمكعب ثلج، بدأ الخوف يعتريني، رفعتُ يده، وتركتها فإذا هي تهوى على السرير، أدركتُ مرارة ما حدث، لقد مات أبي، لانت قسمات وجهي وبدأتُ في البكاء، صرحت بأعلى صوتي، لا يا أبي، لا



تمت أرجوك، صرختُ بأبي أناديه عله يُلبي ندائي، لكن ذلك لن يحدث، جاءت أختي وأمي على صوت صراخي ليدركوا ما حدث، كم كنتُ قاسيًا معك في آخر لحظاتك، كم كنتُ أهوج غبيًا، بدلًا من أن أحنوا عليه عاملته بغلظة، سامحتك يا أبي، سامحتك.

***



"النهاية"

بعد سنوات..

كنتُ بمزل جدتي في البلدة حين قالت لي:

_ فاكر الراجل اللي كنت سألتني عليه يا عز؟

سمعت أنه مات النهاردة الصبح.

الشيخ سعيد رفعت! ذهبتُ على الفور لمضيفة البلدة لأحضر العزاء، سلمتُ على ابنه إبراهيم الذي عرفته فيما بعد وجلستُ معه حتى انتهى العزاء، نظرتُ في ساعتي كانت التاسعة والربع، لحظات وسمعت بعض أهل البلدة يهرولون قائلين:



_ الحقوا يا ناس، الحقوا يا أهل البلد، أرض الشيخ سعيد الله يرحمه بتولع.

هرولوا جميعًا ناحية الأرض، ذهبتُ معهم والفضول يكاد يقتلني، عندما وصلنا كانت الأرض تشتعل، والآن الآية قد قُلبت، رجال المرحوم يسارعون ليطفئوا النيران التي قضت على الأخضر واليابس، المحصول قد تفحم تمامًا، نظرتُ لإبراهيم الذي كان يصرخ، أخذتُ أهدئه واحدثه عن قضاء الله، وأنه ابتلاء أختاره الله ليمتحن صبرك.

هدأت النيران، وهدأ هو الآخر، قولت له بتؤدة:



_ هتعمل ايه يا ابراهيم دلوقتي؟ والمحصول هتعمل فيه ايه! يا حول الله يارب، ربنا يجازي اللي كان السبب.

كان كالغائب عن الوعي والذي أفاقته كلماتي، قال لي بشرود:

_ اا..ااا.. أنا مش عارف هعمل ايه، ده المحصول ده الحاجة الوحيدة اللي ابويا سبهالي أنا والعيال، كدا مش هتلاقي نأكل يا عز.

_ طب واللي يحلهالك يا ابراهيم؟

_ احب على يده.

اخرجتُ سيجارة من عُلبة سجائري ثم أشعلتها، سحبتُ أنفاسًا منها بشرود كأنني أفكر ثم قلتُ له:

_ أنا هشتريها منك يا هيما، قولت ايه؟



_ موافق.

_ بس بالسعر اللي اشترى ابوك بيه الأرض.

_ بس.. بس..

_ مش بس ولا حاجة، ما انت عارف اني بغامر، يعني الأرض معدش ليها أمان تتزرع تاني، ده انت تحمد ربنا اني مقللتش في السعر اكتر من كدا، ويكون في علمك، محدش هيشتري أرض ملعونة.

نظر لي وقال بتردد:

_ طب انت هتشتريها ليه؟

_ أنا عايز اساعدك مش أكتر، ده مهما كان احنا ولاد بلد واحدة، ولو أنا موقفتش جنبك مين هيقف يعني؟



عادت الأرض لأصحابها، بالفعل كانت بطريقة غير شرعية، ولكن أي شرعية كانت عندما حرق أباه محصولنا وقتل منا ما قتل، كنتُ أريد أن أثأر لموت عائلتي، فالمحصول لم يتفحم بمفردة، بل احتاج خمس رجال وبعض جراكن الجاز وعود كبريت، الأمر لم يكن مُكلف كثيرًا، انتظرتُ حتى التاسعة والربع حيث كان معظم أهل البلدة في عزاء الشيخ والجزء الآخر في بيوتهم، وارتفعت ألسنة اللهب إلى عنان السماء.

....تمت.....

#خالد_فودة

#الفازع